صناعة الثقافة والفنون

واستثمارات تأهيل الإنسان

د. سعيد بن محمد السيابي

صناعة الثقافة ودعم الفنون ما هي الا مقدمة لمشاريع أكبر تبدأ بفكرة وتنتهي بإنجاز يتشكل في عالمنا الذي خلقنا الله لإعماره، فعندما تخرج من بيتك وتطالع ورشة يجلس فيها شاب مندمجا على اختراعه الذي يتكون من عدد من المركبات والعناصر فتجده يقضي جل وقته يتابع باهتمام كبير ذلك المكون الذي يتغير ويتبدل في أوضاعه عشرات المرات فيأتيك الفضول فتسأله عن اختراعه الذي هو في سبيل صنعه تصدمك اجابته بانه «لا يعلم بالضبط»! فتقرر الذهاب إلى السوق فتجد عدداً كبيراً من النساء المتبضعات وقد امتلأت السلة أمامهن فتسال إحداهن هل كل ما تم شراؤه كان ضروريا فتاتيك الإجابة «بلا»، فتقرر الذهاب للبحر والشكوى من تسارع العالم والمجهول الذي يلفه فتشاهد عجوز يمشي على البحر ورأسه يطالع الأفق، فتستوقفه بالسؤال إلى أين تريد أن تصل؟ فيفغر فاه ليقول لك «خطوات كتبت علينا فمشيناها ومن كتبت عليه خُطًى مشاها»..

ماذا حدث ويحدث؟ لِمَ كل هؤلاء الذين يمرون علينا لا يستنطقون وجهتهم ويحددونها ببوصلة الاتجاه لاختراع ما أو تحديدا لضروريات أو لوجهة معلومة مسبقا؟ فالإجابة والتعليل للأسباب والمقدمات المنطقية لا يمكن باي حالة من الحالات أن يغير من حقيقة هذه المقدمات شيئا، وإنها مقدمات موجودة دائما لفكرة أساسية تهدف إليها وإن كانت لا تراها في لحظة الانجذاب والمحاولة على تتبع خيوطها.

كُتب كثير من الأسئلة المشرعة على مصراعيها حول الثقافة والصناعة، والطريق بين القطاعين المربحين التي تم تجسيرها في عدد من الدول، كالهند مثلا تسمى السينما الذهب الأسود، لما تدره من أرباح كبيرة، وتوظيف لقطاع كبير من العاملين، وصناعة الملابس الأوروبية التي غزت العالم برسوماتها وزخارفها وموضاتها التي تشكل صناعة كبيرة تدر مليارات الدولارات والنماذج على الاستفادة من الصناعة الثقافة في العالم أصبحت معروفة ولا تخفى على أحد، ولكن هذا القطاع في الدول الخليجية تحديدا- للأسف ما زال محدودا، والنظرة له كصناعة يلفها الكثير من الغموض والاجتهادات الفردية. فهل المشكلة فيها تنظيم إداري أم قلة في الحجم السكاني أم ضعف ابداعي أم ظروف بيئية مكانية تحجم من قيمة ما تم، وتقف عائقا أم تطوير الثقافة، لتصبح منتجا صناعيا مربحا؟ ربما لا يتسع المجال لدينا كثيرا للإجابة عن كل الأسئلة في هذه العجالة، ولكن طرحها للنقاش هو ذاته مكمن يمكن الولوج اليه والتوقف عنده في بحر التسارع العالمي وتشكل المشاريع الثقافية والفنية الخليجية الحالية والمستقبلية.

إذا كان الايمان بأهمية الثقافة والفنون يتربع على قمة الهرم الإداري الخليجي، والنظرة لهذا المجال يحمل الأهمية في الخطط القصيرة والطويلة التي أعلنت عنها العديد من الدول الخليجية، فان البناء الذي دائما ما يتم الحديث عنه والتخطيط له يحمل عنصرا كبيرا في الأهمية إلا أن التأهيل والتدريب للكادر البشري غالبا ما يأتي في أولوية الدرجة الثانية وربما الثالثة لذا يقف هذا القصور عائقا أمام تطوير صناعة ثقافية مربحة، وهنا لا بد من تحديد صفة الأولوية بين البناء الخرساني المطلوب والبناء العقلي المهم، وفوق ذلك وذاك الاستعانة بمخططين ناجحين ذَوَيْ تجارب مشرفة، وليس الامر بالضرورة ان نبدأ من الصفر أو العودة للوراء أو الندب على ما مضى من أعوام دون أن تحقق تلك المشاريع الثقافية والفنية للمردود المادي لإدارتها ودفع رواتب موظفيها كما حدث في العديد من النماذج الخليجية المشتركة التي تم تقليصها واغلاقها (كمركز التراث الشعبي لمجلس التعاون لدول الخليج العربية) إحدى المؤسسات الثقافية لمجلس التعاون الخليجي.

إن التكتلات والاندماج العالمي وتبني فكر الشركات العابرة للقارات التي تتخطى رؤوس أموالها ميزانيات العديد من الدول يجب أن تكون مصدر اشعاع للمخططين الخليجيين والتفكير الجاد في صناعة ثقافية وفنية مهم أن يبدأ يتشكل في وعينا وفي الأجيال الصغيرة من شبابنا الذين نبحث لهم عن فرص لبصمات مشرفة من الاختراعات والابتكارات والابداعات الثقافية والفنية، لتصل ببلداننا للعالمية، فالحصول على جوائز وتقدير دوليين لا ينبع من الكتابة عن الآخر ولكن بالوصول بالفكر والثقافة المحلية التي ترقى بأن تكون منافسا قويا في الابداع الإنساني، فتكثيف التفكير النقدي والإبداعي (Critical and Creative Thinking) هو أحد المفاتيح الملهمة لجعل الثقافة صناعة وليس شيئا زائدًا عن الحاجة، فالتحول في تغير عدد من المسميات التعليمية في المناهج والجامعات يصب في مصلحة تطوير صناعه الثقافة، ففي جامعة كوينزلاند للتكنلوجيا (QUT) بمقاطعة كوينزلاند بأستراليا تم تغيير مسمى كلية الآداب والعلوم إلى (كلية الصناعات الإبداعية/ Creative Industries) يدخل فيها تخصصات الاعلام والدراما والموسيقى والازياء والتصميم والرسم والفيلم والتلفزيون وإدارة المشاريع الثقافية وغيرها)، والنماذج لهذا التحول بدا واضحا وجليا حتى في الأبحاث العلمية المنشورة حديثا حول أرباح العديد من المواقع الثقافية والفنية والتكنلوجية، والملايين التي تدرها لأصحابها، وثقة المتلقين فيها، لذا يحدونا الأمل في أن نرى مشاريع ثقافية وفنية ربحية خليجية طريقها للعالم في القريب في ظل اهتمام كبير من أعلى المستويات على تشجيع الصناعة الثقافية في عالم لا ينظر لنا فرادى.